قصة مصرية

ســــــمير

للأديب محمد السيد محمد المويلحي

بتلك الزرقة الفيروزية الصافيــة ، وبتلك النجوم العوالى التى تترك فى النفس أثراً ساحراً وسحراً آسراً ،وبتلك الأضواء اللألاءة التى سكبها القمر على فحمة الليل فأضت كماسة مياسة.. استطاعت « عزيزة » أن ترى من نافذتها شبحاً يغدو ويروح بين الأشجار ..!! فأنعمت النظر فيه جيداً ، حتى إذا اقترب من المصباح صرخت صرخة مكتومة ..!! وفى تثيم قالت : « هو، هو بعينه » .

بادهتها رغبة ملحة تحفزها للمسير نحوه ، ليمرحا فى فراديس الحب ويهنآ فى عروش الظلمة الداكنة ، حيث لا رقيب ولا حسيب .

أقفلت نافذتها ووقفت وراءها تجابه الظلماء التى تحجبه عنها ولكنها تحدثها فى ابتهاج ، وانثنت فاتحة لها مرة ثانية ،فرأته يرنو إليها بشغف وحنان ،وقد ثارت ثورة غرامه،فخلعت على وجهه نقاباً من نار ودثاراً من نور ، فأومأت إليه برأسها أن انتظر ، ثم رفعت إليه بفم الريح قبلتها الطويلة .

* * *

خضعت لعواطفها ، وسارت إلى أمها تستأذنها الخروج لعيادة صديقتها « أمينة » ، ولوثوقها من مرضها وعدم خروجها قالت لها ملحة : « وهى تتمنى زيارتك أنت الأخرى.. » ولم تنتظر جوابها بل جابهتها بسرعة خاطفة وبحركات تمثيلية متقنة « أد إيه أمينه تحبك يا ماما . . !! ياروحى عليها . . وأنا بحبها عشان كده ، لأن اللى يحبك أفديه بروحى. . . » فضحكت الأم ضحكة تواضع وخجل ،وقد دخلت عليها حيلة ابنتها ، فقالت لها :

« والله يابنتى أنا رخره أحب أمينة ، وأعطف عليها من كل قلبى ، لأنها بنت حلال يتيمة مسكينة ، روحى،بس متغيبيش لحسن بابا ييجى ويزعلنا » .

يزعلنا ليه ..؟ الناس كلها بتخرج فى رمضان ، هو أنا اللى بس بخرج ؟

طب روحى وسلمى عليها ، مع السلامة ..

وفى حومة هذا الحوار كان سمير يتلهف شوقاً لقدومها ، حتى إذ رآها قادمة نحوه سار إلى أن صادفته حافلة فأوقفها وأمرها بالركوب فصعدت وصعد فى إثرها قائلا : « المعادى » . . ثم نظر إلى عينيها المتشحتين بدثار السحر المدثرتين بوشاح الفتنــة والجاذبية . . وإلى وجهها البهى المشرق الذى يشع منه نور العفاف ، ويتألق فيه ضوء الصبا . . !! فشعر كأن قلبه قد

قفز من مكانه ، وصعد إلى مقلتيه ليمتع نفسه بالنظر إلى هذا الحسن الناضج، وهذه الرؤيا الحالمة .
راعها إدمانه النظر إليها فسألته قائلة :

— مالى أراك ساهماً واجماً ؟ هل من جديد ..؟

— إننى أمتع روحى بالنظر إلى تلك الأضواء التى لا تخبو ، أمتع قلبى وحبى بزوجتى المحبوبة التى بوأتها عرش فؤادى، و... فقاطعته قائلة :

— حبيبتك لا زوجتك ! لأنك لو كنت تريدنى حقاً لما تأخرت عن الذهاب لوالدى ومفاتحته فى أمرى . ! !

— أتشكين فى حبى وشرفى ؟

— لو كنت أشك ، ما سمحت لنفسى بالخروج إليك ليلاً ، ولكننى متعجبة — وأى عجب — لهذا الانتظار الممل . .

— عزيزة ! ألا تعلمين أن مرتبى لا يتناسب ومركز والدك ؟ ماذا يكون موقفى عند ما يجابهنى بهذه الحقيقة المرة ؟ ويطردنى شر طردة ، ثم ألا تعلمين أيضاً أننى مستشره « سكرتيره » ؟

— ليس هناك فرقاً ! ! يجب أن تكون شجاعاً جسوراً . . اعتمد على الله وتقدم ؛ إنك لن ترتكب إثماً ولن تطلب منه حراماً، لقد كان مثلك صغيراً ثم كبر ؛ ثم ألا تعلم أن كل شىء يبدو صغيراً وينمو شيئاً فشيئاً حتى يغدو كاملا أو ما يقرب من الكمال ؟ أقنعه بهذا إن حاجك، فإن لك من أخلاقك الوديعة واستقامتك الطيبة خير شفيع، وسأفضى لوالدتى بكل شىء حتى تكون خير معوان لنا . .

* * *

تقابلت العيون ، فتلاحمت الشفاه، وانتشر عبيق الحنان الفواح ، وسرت كهربائية الوجد حتى أدركت الحوذى فارتبك . . وأحدث صوتاً هو أشبه باحتجاج منه بنحنحة ! ! فتباعدا وهما يرشقانه بأقسى النظرات ويرميانه بالتدخل المعيب ، ولكنهما ثابا إلى رشدهما ، فابتسما وعذراه لأنه شرقى « والشرق مشهور بحبه لكرامته وشرفه »، وما هى إلا برهة وجيزة حتى كانا فى المعادى ، يسيران على شاطىء النهر وقد انعكست عليه أضواء القمر فأضحى كمرآة مجلوة صافية . حلا لهما الجلوس ، فجلسا على ربوة دحداحة محاطة بالمروج من كل صوب ، وقد سحرهما هذا السكون المتدثر بالروعة والجلال ، وهذا الهدوء العميق الزاخر بالرقة والجمال، الذى لا يشوبه لا نقيق ضفادع ، ولا شخشخة حشرات .

* * *

راح كل منهما يستعرض ماضيه وذكرياته وما صادفه من نعيم أو شقاء ، ولكنهما لم

عجداه إلا من ناحية واحـدة ، هى ناحيـة التعـارف والاندماج الذى ملأ عقليهما بسحر الوجود وفتنة الوجد ، ومن ثم امتطيـا جناح الخيال حيث سماوات المستقبل الزاهر الزاخر بالسعادة ، الكامن فى وطن سحرى مملوء بأحلام الأمانى وأطياف الحنان ، هذا الوطن الذى سيجمعهما ويغمرها بنور البهجة المرجوة . .

وما إن وصل تفكيرهما إلى هذه الأمنية الشريفة النبيلة حتى انتشى كل منهما بنشوة الهوى وراح فؤاده يغنى « أنشودة الأبدية » التى هى أحلى مايتقبله الوجدان الزاخر بالنبل والسمو . .

وكان من أثر هذه الآصرة الخيالية ـ التى آضت عندهما وكأنها حقيقة مقدسة ـ أن هب سمير واقفاً وقد اتسعت حدقتاه والتمعت مقلتاه ، وأخذ يرنو إلى عينيهـا بنظرات مرتعشة مرتبكة ولا ينبس ببنت شفة كأنه فى حضرة إلٓه جبار .. هبت واقفة ـ هى الأخرى ـ وقد انعكست على وجهها تلك الأنوار اللألاءة فآضت كتمثال قد من ماس مياس، أحس فى قرارته ركزاً خفياً يقول :

تهجد فى محراب هذا الجمال وتضرع إلى خالقه أن يضمك إليه . .

فجثا راكعاً عند قدميها وقد طوقها بذراعيه القويتين وقال :

حبيبتى . . أنت سحر الوجود وفتنته وبلسم القلب ومنيته ، اغمرينى بأنوارك ، وأنيرينى بأضوائك ، تسلطى على بفتنتك ، واجذبى روحى برقتك ، ثم اسحقى كيانى وكيانك وكونى من تراثهما كياناً واحداً . .

عزيزة ..هاهى ذى دموعى منسابة فوق وجنتى تلهبهما بنارها وتحرقهما بكيها، فهبينى عطفك وحنانك. هأنذا رافع نحوك ذراعى أسألك الوفاء والصـبر ، والنأى عن الهجر والغدر .. ثم راح يبكى بشدة . .

تخدرت أعصابها وتخاذلت أعضاؤها،فافترشت من تلك المروج مهاداً وثيراً،ثم ارتمى فوقها يسحقها بجسده الملتهب ، ويقبلها قبلات نارية فتاكة وهى تجيبه بأحر منها وأفتك . .

رقصت حولها الشياطين والزبانية وأغراها الشباب الجامح والموقف الجائح ، ولـكنهما لم يخلقا من هذه الطينة القذرة . . ! ! فإنه وإن كانت الشهوة تسحقهما فإن النبـل يرعاها . . لذلك هب سمير واقفاً وهو يقول :

ــ نحن أرفع من هذا وأشرف . . أليس كذلك ياعزيزة ؟ فلم تجبه ، بل نظرت إليه نظرتين : نظرة غيظ وألم ، ونظرة نبل وتقديس ، كأنه رب صغير عصم نفسه عن الدنايا وثلم الأعراض . وأخيراً وفى مجهود عنيف قالت :

ــ نعم لغيرنا هذا، أنت قديس ياسمير، بارك الله فيك، ثم هوت على يده تلثمها شاكرة فخورة .

كان هذا الإطراء قميناً بأن يخجل (سمير) فجلس على الربوة وقد لمع وجهه بلون وردى

أكسبه بهاء ورواء ، أما عزيزة فقد أبى حبها إلا أن يجلسها بين أقدامه ، واضعة رأسها بين فخذيه تلهبهما بلثماتها القوية ، ولكنه رفع رأسها بين يديه ورنا إلى عينيها بعقلتين غارقتين فى عبراتهما وقال : عزيزة ، حبيبتى ! إننى مرءوس لوالدك ، وسأبذل أقصى ماقى وسعى لحمله على زواجنا ، سأحضر باكراً فاجتهدى أنت الأخرى ، والآن فلنذهب . ثم تعانقا طويلا وانثنيا عائدين .

* * *

« سليم أفندى » رجل نقى النفس ، طيب القلب ، محبوب من مرءوسيه مع شدته معهم ، وهو وإن كان رجعياً يفكر بعقلية القرن المنصرم إلا أنه — لفرط حبه لابنته عزيزة — سمح بتعليمها وتهذيبها ؛ ولم تكن له أمنية فى الحياة إلا أن يراها زوجة لثرى كبير أو موظف قدير خطير تقضى معه بقية عمرها فى سعادة ورفاهية ، لاعتقاده بأن السعادة لاتكون إلا مع المال والجاه ! ! لذلك لا نعجب إذا رأيناه يقف من سمير موقفاً صارماً جباراً فيصب جام غضبه عليه ، ويقذفه بحمم براكينه ، ويعجب كيف جرؤ على طلب يد كريمته ولسان حاله يقول :

أتريد أن تسطو على سعادتها وهنائها وتذيقها معك ألم الفقر وذل المنصب الحقير ؟

لم يستطع سمير أن يقنعه ، أو بعبارة أدق ، لم يترك له سليم أفندى فرصة يرجعه فيها عن غلوائه وكبريائه وتطرفه الذى سيحطمه ويحطم معه ابنته ؛ إلا أنه فى شىء كثير من الصلابة والشمم قال له : سيدى ! أنت أعرف الناس بأخلاقى واستقامتى كما أنك تعلم أنى منتسب للجامعة ، ولن يمضى طويل زمن حتى أكون من حاملى الليسانس ، وليست هى آخر آمالى ومطامحى ، وأظن أن كل هذا يشفع لى عندك . وفى استعطاف وتضرع قال له : أرجوك ألا تحطم آمالى وتحطم معها سعادة ! ! ...

— حذار أن تلوك اسمها فأنت غريب عنها وستظل غريباً .. !!

ويظهر أن سليم أفندى بعد أن نطق بهذه الجملة القاسية المستبشرة ، أراد أن ينصحه بلين ، فقال :

— يابنى ! ابحث لك عن فتاة تناسب مركزك حتى لا تبهظك بالنفقات الطائلة التى لا تتناسب ومرتبك .

فدنا إليه سمير وقد تخضلت عبراته وتحطم فؤاده وقال :

أشكرك ياسيدى ، وأتمنى لكريمتك السعادة من كل قلبى ، ثم خرج متعثراً وهو يبكى بصوت مسموع ! !

دخل سليم أفندى ليخبر كريمته بهذا النبأ الذى وقع فى ظنه أنها ستسر له أيما سرور ، ولكنه وجدها تبكى بكاءاً مراً ، وتئن أنيناً موجعاً . . ! ! فكان بينه وبين زوجه حوار :

— بنتك بتعيط ليه . . ؟ إنتوا سمعتوا الحكاية ولا إيه ؟

— سمعناها من أولها لآخرها ! !

— طيب وهو أنا مجنون أديها لواحد زى ده ! ! متديطيش ياعزيزة .

ولكنها ازدادت فى أنينها حتى أوشك ان يكون حشرجة ، وكان حالها لايخفى على أحد ، إلا على أمثال سليم أفندى ! ورغم كل هذه الآلام الظاهرة قال سليم :

— وخده على خاطرها ، بتظن إنى كنت حوافق . . محال . . محال . .

***

بعد تسعة شهور كان بيت سليم أفندى يعج بالمهنئين والمهنئات لخطوبة كريمتــه بالسرى الكبير والتاجر الخطير « الشيخ أحمد حلمبوحة » ،وكان الكل فى سرور حار إلا عزيزة فإنها كانت تحترق فى قرارتها وتنتحر فى هيكلها . . . .

لم يسمع سمير بتلك الخطوبة لأنه كان منهمكا فى عمله ومنتظراً نتيجة امتحانه التى ستظهر بعد يوم واحد ، وفى الصباح الباكر ذهب إلى مكتبه فألفاه يموج بزملائه وكلهم فى انتظاره ليهنئوه بهذا النجاح الممتاز .

دهش لهذه المفاجأة وانعقد لسانه ، فتقدم أحدهم « باتع أفندى » ، وبيده الجريدة وهو يشير إلى هذا النبأ ، ولسوء الحظ لم يقع نظر سمير إلا على خبر خطوبة «عزيزة» بالشيخ أحمد حلمبوحة ،فرمى برأسه إلى الوراء وقد انفجرت العبرات من عينيه بقوة ثم راح فى غيبوبة مميتة .

ساد الهرج واشتد اللغط بين زملائه فمن قائل :

— من كتر فرحته يا أخى . . ماهو نجاح مدهش .

ومن قائل :

— مهما كان مش قد كدة الفرح . . دا ميت خالص . . ! !

وبيناهم فى حومة هذا الحوار إذ بسليم أفندى يدخل مشدوهاً مدهوشاً لهــذه الحركة الغريبة الصاخبة،فسأل عن الخبر فقال له أحد مرءوسيه :

— سمير أفندى أغمى عليه لما أخبرناه بنجاحه فى الليسانس .

ولكن سمير نهض واقفاً وقال : الحمد لله ،إنتهى كل شىء .. أشكركم جميعاً على إحساسكم النبيل . فانصرف كل إلى عمله ولم يبق إلا هما فقال سليم :

— مبارك ياسمير يابنى ،دا نجاح ممتاز باهر ، والله إنت تستاهل أكتر ، إن شاء الله أهنئك بنجاحك فى الدكتوراه . . فأجاب سمير :

— مبارك الخطوبة « ياحضرة الباشكاتب » إن شاء الله أهنئك بالبكارى . . هه ! بكارى الشيخ أحمد حلمبوحة،فامتقع سليم أفندى من هذا التهكم المر،ولكنه فى الوقت نفسه عرف سر إغمائه فأراد أن يواسيه فطيب خاطره وشجعه بكلمات كانت تهبط على رأسه وكأنها شظايا تلهب رأسه وتفتك بروحه . .

مرت الأيام تباعا وانقضت الشهور سراعا فإذا بسمير في الدرجة الرابعة، وإذا به أول الناجحين في الدكتوراة ، بل إذا به يخلف سليم أفندي في منصبه لإحالة الأخير إلى المعاش . . . ولكن أي مركز !! وأي جاه يشعر لها بلذة وقد تحطمت آماله وتمزقت سعادته ؟ لذلك كان دائماً كسيف البال كليم الفؤاد عابس الوجه، شديداً حتى مع نفسه وأهله، وكان يميل إلى الوحدة والخلاء، يصطحب معه جرائده عصر كل يوم ، ويذهب إلى الخلوات الراكدة النائمة .

وبينما كان يتصفح جريدة في يوم من الأيام إذ به يتف مشدوها مبلبلا حائر اللب وهو يقول : مسكينه، لقد تحملت العذاب بأنواعه ، وها هي ذي ضربة أخرى ، ثم أخذ يقرأ بإمعان وروية « لكل هذه الأسباب المتقدمة والتي أهمها التزوير في أوراق رسمية وإدمان المخدرات والنصب والاحتيال .. حكمت المحكمة على الشيخ أحمد حامبوحة بالسجن سبع سنوات مع الأشغال الشاقة »، ثم رمى بجرائده والتى راجعاً إلى بيته وهو مضعضع الحواس مفتت القلب ، ومضى أسبوع فإذا بالساعي يخبر رئيسه سمير أفندي .. أن سيدة تلح في الدخول عليه، فأمره بإدخالها وهو يعجب من تكون ؟؟

تقدمت عزيزة ببطء وقد اتشحت بمئزر أسود، لا حزناً على « الشيخ حامبوحة »، وإنما حزناً على شبابها وسعادتها .. وقالت :

سمير بك .. سمير بك ـ وهنا انحدرت دموعها ـ أتيت لأهنئك بمنصبك الكبير وأطلب لك السعادة من كل قلبي .. لقد أساءك والدي وفرق بيننا وقتل قلبينا وها أنذى قد أتيت أرى خطيبي سابقاً وحبيب شبابي ومبعث سعادتي ، لا لشيء إلا (وهنا تقدمت حتى لاصقته وأسرعت بلثم وجنته) لأقول إني أصبحت فقيرة وفقدت كل شيء في الوجود .. حتى حبك وعطفك — لقد تغيرت كثيراً ياسمير .. العفو ياسمير بك ..

— عزيزة ! أنا سمير لم أتغير .. أنا بك ؟ أنا سمير بك ؟ ثم هب واقفاً وأتى بجوارها وصرخ باكيا وقد ركع عند قدميها وأخذ يلثم جلبابها بحنانه القديم وشغفه العظيم، ثم رنا إلى وجهها المخضب بالعبرات وقال :

عزيزتي .. حبيبي .. أنا خادمك اصفحي عني، أتقبلينني الآن؟ أيقبلني والدك ؟؟

وهنا يفتح الباب فإذا بسليم أفندي واقف وقد سمع جملة سمير الأخيرة فأجابه : نعم، الآن أصبحت عظيما ونحن الآن نرجوك .... اصفح عني يا بني، لقد كنت قاسياً عنيداً ... اصفح عني لأجل عزيزة.

وفي اليوم الثاني نشر هذا الخبر « أعلنت خطوبة كريمة الأستاذ سليم أفندي بالدكتور الفاضل سمير عصمت فنتمنى لها الهناء » .

وبعد شهر واحد كانا في ضاحية المعادي يسيران على الشاطيء، ثم حلا لهما الجلوس فهرعا إلى تلك الربوة الدحداحة، وهما يغنيان بأعذب الألحان ويتعانقان وو...؟؟ »

محمد السيد محمد المويلحي